الانسان قلب غلافه الجسم

أصلحوا القلوب تصلح الأخلاق والأجسام

للأستاذ خلف محمد الحسيني

المدير المساعد السابق للتعليم الثانوى بمنطقة أسيوط

مضى عصر الظلم والظلام والاحتلال ، وجاء عصر النور والاستقلال . فقد قبض على أزمة أمورنا فى هذا العصر الذهبى مصريون من صميم الشعب يؤمنون بالله وبالوطن ، ويجاهدون فى سبيل إنهاض الشرق والغرب قاطبة .

ولا ريب أن الاستقلال السياسى والاقتصادى هما أساس كل نهضة وكل تقدم ورقى ، وإلا فكيف يطير الطائر وهو مهيض الجناح ؟

ومما لاشك فيه أن الأخلاق هى عماد نهضة الأمم ورقيها ، ولا أخلاق بدون إيمان بمثلها العليا ، ولا مصدر لهذه المثل إلا الدين . ثم الدين . ثم الدين . ولا أثر للدين إلا إذا مس شغاف القلوب ، واستقر بين الجوانح ، فقد أشار النبى (ص) إلى ذلك فى حديثه المشهور « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب» وهل يصلح القلب ويشفى من أمراضه المعنوية إلا بالقرآن وهو شفاء لما فى الصدور ؟ .

وإذا فالقلوب هى التربة الخصبة التى يغرس فيها الأبوان والمعلمون تلك المثل العليا « وكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » تبعاً لتأثير بيئته . وكلما كانت القلوب غضة بضة نقية ؛ كانت أقبل للغرس ، وأحفظ لما يودع فيها من بذور الفضائل ، فالتعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر . ولكن هذا النقش ذا التأثير القوى يعوزه نقاش ماهر مؤمن بمهنته ، متقن لصنعته ، مخلص لرعيته .

فمن لنا بهؤلاء المعلمين أمثال السيدين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ؟ من لنا بمعلمى الدين ذوى الآفاق الواسعة والحجج القنعة ، والقدرة على مواجهة الشكوك وانتشال الشبان المنحرفين من وهدة الرذيلة إلى ذروة الفضيلة ؟ .

أساءة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟

نستطيع أن نعثر على بعض معلمى الدين باختيارهم مؤقتا من بين القادة الصالحين للدنيا والآخرة ربما تنشىء وزارة التربية والتعليم قسما للتربية الدينية أو أقساما بكليات المعلمين لتخريج المتخصصين فى تدريس الدين ، بحيث يكونون قدوة حسنة لغيرهم فى الأقوال والأفعال ، فليس الدين مقصوراً على الصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ فإن هذه أركانه وعمده التى يبنى عليها كما أشار إلى ذلك الحديث المتواتر « بنى الإسلام على خمس . . . » فالدين كما قال الرسول (ص) هو المعاملة ؛ « والدين هو النصيحة » ، والدين هو العمل والانتاج والسعى على الرزق والكفاح والجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وما إلى ذلك مما هو مسطور فى الدستور الإلهى وهو القرآن العظيم ، معجزة خاتم الأنبياء والمرسلين . ومنه استمد أخلاقه وآدابه الربانية ، التى هى المثل الأعلى للإنسانية .

وبآياته البينة التى تتفق مع الفطرة السليمة ومع طبيعة البشر أسلم الناس ولا يزالون يسلمون حتى فى هـذا العصر المنعوت بعصر الإلحاد والتشكك وعصر الإباحية واللادينية .

ألم تر إلى من أسلم فى هذا العام من الأوربين والأمريكان بمحض إرادتهم واقتناع عقولهم ، واستجابة فطرتهم بعد دراسة الدين الإسلامى وإيمانهم بالقرآن ؟ فقد أسلم فى هذا العام خمسة من الرجال والنساء الأجانب أذكر منهم على سبيل المثال آنسة سويسرية سميت بعد إسلامها « جميلة زوسترنج » . وقد ذكرت أن أسباب إعجابها بالإسلام واعتناقها له : أنه نقى كالبلور خال من الشوائب وأنه دين الوحدة يجمع الناس جميعاً على كلمة واحدة هى كلمة التوحيد وعلى عبادة واحدة ورب واحد وذكرت أنها أحبت فى الإسلام حبه للسلام وكراهيته للحرب وأحبت فى الإسلام كماله لأنه يذكرنا

بأصلنا القديم دائما ويدلنا على الطريق الأمثل لعلاقاتنا مع إخواننا بنى آدم كما أنه يشجعنا على دراسة الظواهر الطبيعية .

وبما أن مشكلاتنا تتعلق بطبيعتنا كبشر وتتعلق بوجودنا الإنسانى فى عالم طبيعى مادى فإنه يجب علينا أن نرجع دائماً إلى القرآن . إذن نستطيع أن نأخذ منه كل التعاليم السامية ونعثر على الحلول الموفقة للمشكلات التى توجهنا .

هذا وكل علاج للنفوس وإصلاح للأخلاق بعيد عن القرآن لا خير فيه ولا أمل يرجى منه ، لأن العبرة بما تكنه الجوانح ، لا بما تبديه الجوارح وفى الحديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » فمن لم يؤمن بحرمة قتل النفس ويخشى عذاب الله فى الدنيا والآخرة فلن يزعه وازع .

والدليل على ذلك أن محاكم الجنايات قد ضجت من كثرة السرقة والقتل والغش وما إلى ذلك من المنهيات المحرمات ، وكذلك المعاهد والمدارس تعانى ما تعانى فى سبيل تقويم انحراف الشباب وتبذل فى ذلك ما تبذل من تمثيليات وعقوبات ، ولو عنيت بالقرآن ودراسته كما سبق بيانه لاهتدت إلى الدواء الناجع وسارت فى أقوم سبيل وأصلح طريق ، والله يهدينا سواء السبيل ؟